الفصل الثالث عشر

أولى الخطى في نجران

أصدرت أوامري للشاحنة أن تتبع الطريق وتتوقف في مواقع حددتها لإعداد القهوة والمأكولات السريعة، بعد أن قررت أن أتحول إلى الطريق المباشر الذي يقود إلى تصلال.

أنهيت مهمتي في تصلال وعصورها القديمة وضربنا الطريق في مسار معوجّ عبر سهل جذيم إلى حيث التل البارز المسمى الشعثاء[1] - يبعد حوالي ستة كيلومترات وهو ملازماً للطريق من عند برق الدرة - حيث أدركنا رفاقنا بعد قيادة مسافة ثلاثة أميال. لم نتراخَ كثيراً هنا، غير أنني قمت بجمع بعض الثمار من بعض أشجار الطلع (سمر وسلم) والتي كانت تكوّن أجمة كثيفة في هذا الجانب من السهل. كان اليوم، حتى هذه اللحظة، جميلاً وبارداً على عكس اليوم السابق الذي هبت فيه العاصفة الترابية، غير أنه مع تقدم النهار، بدأت الرياح تهب من جديد حاجبة المنظرية بالغيوم.

مررنا أثناء السفر ببعض الإبل الحلوب، وهي تستريح في ظلال بعض الشجيرات -ولا أحد يقوم برعايتها- أو على الأقل، لم نر أحداً، ولم يعترض أحد على رفاقي الذين سارعوا بقحافهم وأوانيهم التي يبلغ تعدادها نصف الدستة، وعادوا بها وهي ممتلئة بالحليب الطازج، الدافئ، ذي الرغوة. ينتمي البدو

(١) تل الشعثاء: يطلق عليه أيضاً اسم (الشعث)، ويقع إلى الشمال الشرقي من مطار نجران. (ابن جريس).

في هذه المنطقة إلى آل الهندي بصفة أساسية -والذين، مثلهم مثل قبيلة آل مرة، يعدون فرعاً من شم[١]- وآل فاطمة، بينما يتردد الأسلوم وآل رزق بدورهم على مراعي حبونا. تنتمي كل هذه العناصر الأربعة إلى يام، والذين، إلى جانب قبيلة دهم (من منطقة الجوف)، يلتقون عند جد مشترك هو همدان بن زيد.

اتجه طريقنا ناحية الجنوب الغربي من عند الشعثاء مسافة خمسة أميال حيث تنحدر التلال المحيطة لسهل جذيم إلى الغرب (أي إلى يميننا) ومع الطريق إلى بقعة حادة تسمى الوعير، ومنها تلتف التلال حول خليج واسع ناحية الشمال الغربي. انحرف الطريق هنا إلى ناحية الغرب عبر وتر هذا الخليج، الذي احتوى على أشجار أراك كثيفة نسبياً وعلى شجيرات طلح منخفضة، تقع كلها على مسافة (٣٠٠) أو (٤٠٠) ياردة من موقعنا على اليسار تجاه الوادي نفسه. وصلنا إلى مقبرة أخرى تقع بين الطريق وبين الزاوية التي تكوِّنها التلال عند المنحنى تجاه نجران شبيهة بتلك التي في تصلال - ربما كانت مقبرة للحجاج الذاهبين أو العائدين من الكعبة، أو ربما كانت فقط مكاناً للدفن لموتى المسافرين، أو ربما كانت بالصدفة مقبرة حربية في موقع لمعركة في أزمان سابقة. لا يستطيع دليلنا حسن أن يلقي الضوء على هذا الموضوع رأساً من ذاكرته أو من المعلومات المحلية.

كانت المقبرة أقل نظاماً مقارنة بتلك التي في تصلال، غير أن بعض القبور كان ذا حجم كبير، كما كانت هنالك روابٍ منخفضة، والتي، إن كانت دائماً قبوراً بالمرة، فقد بدأت وكأنها مشتركة، ربما دالة بذلك على معركة. كان قطر أحد هذه الهضاب المستديرة (١٢) خطوة وكان بداخلها دائرة داخلية أخرى قطرها ثلاث

(١) هذا هو النطق المحلي لجشم. (المؤلف).

خطوات ونصف الخطوة، وترتفع إلى حوالي قدمين ونصف القدم فوق مستوى المحيط الخارجي، الذي كان معلَّماً ببلكات من حجارة وبالأسلوب المعروف. كان ترتيب القبور المنفردة متبايناً كثيراً، وكان الاتجاه من الرأس إلى القدم (٢٤٤)، و (٢٥٦)، و(٢٦٦)، و(٢٨٠) درجة في الحالات الأربعة التي تحققت منها باستخدام البوصلة. هذا يوحي بأن الدفن تم بتوجيه الوجه ناحية الشمال أو الشمال الغربي، بمعنى آخر، تجاه مكة. كانت المسافة من الوعير إلى بئر الخضراء تبلغ حوالي خمسة أميال ناحية جنوب الجنوب الشرقي.

توقفت لإجراء مسح لأرض وعرة من عند قمة هضبة المنارة، وهي عبارة عن رابية صغيرة، قبل الانتقال إلى ما يليها، كنا قد غطينا حوالي (٧) أو (٨) أميال وكانت التلال -الجانب العكسي لتلال شرا والذي يرى من عند الحصينية- على يميننا وليست بعيدة عنا وكان السهل الرملي أو كثبان الوادي على يسارنا وهي مغطاة إلى درجة معقولة بالأراك والطلح، والحمض وشجيرات خفيضة منوعة. انطلق طريق السيارات، بصفة عامة، غرباً على مسافة متساوية تفصله من التلال ومن المجرى، والذي تتفرع منه مجاري صغيرة من حين لآخر مخترقة له ومتجهة إلى المجرى السابق. كان شعيب الدخول بطن سيل رئيس من هذا النوع، وعلى جانبه الأيمن وقفت هضبة المنارة، بينما يقع على حوضه إلى جهة اليسار بئر قديم مهجور يسمى العريسة.

كان علينا أن نفاضل ونختار مساراً أفضل من تلك الأرض السيئة التي قابلتنا، التي كانت ممتلئة وبكثافة بتلال رملية يكسوها الأراك، كان علينا أن نقود سياراتنا خلالها بأقصى ما نستطيع، وذلك حينما نكون فوق رمال لينة، وحيناً نقود

فوق سبخه خطرة. كان طول المسافة من المنارة إلى برك، عبر هذه البلاد، حوالي خمسة أميال على امتداد الجانب الأيسر لشعيب دخول الذي يلتقي مع وادي نجران فوق البرك، حيث تتكون جزيرة صخرية في الأخير، طولها نصف ميل وعرضها (١٠٠) ياردة. كانت المسافة من برك إلى الخضراء، على امتداد المجرى، حوالي ستة أميال.

وصلنا منارة، وهي هضبة جرانيتية، ترتفع من (١٢٠) إلى (١٣٠) قدماً، وقد تسلقتها لأنظر للصورة الحقيقية الجميلة لنجران نفسها، والتي كانت أقرب مزارع نخيلها وقراها على بعد أربعة أميال من موقعنا، إلى الأمام، قليلاً ناحية الجنوب الغربي. امتدت من ورائها مزارع النخيل المتشابكة الرؤوس، إلى البعيد وإلى أقصى ما يمكن رؤيته فوق الوادي الضيق نسبياً والذي تحيط به من كلا الجانبين سلاسل جبلية عالية وقد انطبقت على رأسها المعلم الأرضي الرئيس للوادي، وهو القمة العظيمة الجرانيتية التي تسمى أبو همدان وكانت شامخة من خلف مزارع نخيل الحضن. أستطيع أن ألمح هنا وهناك بين النخيل مجرى السيل الواسع الرملي للوادي، وهو يتعرج خلال الواحة إلى فجوة (عان أزلم) وليدخل بحرية للصحراء فيما يليها.

مررنا ونحن نواصل رحلتنا، بمجموعة صغيرة من الرضم (قبور) على جانب الطريق، وعلى يميننا، وتبعد حوالي (٢٠٠) أو (٣٠٠) ياردة فقط من المنارة، وتقع قريبة من الخط الذي يسهل تتبعه ويقود إلى سد قديم من صخور وتراب يخترق السهل، إلى طرف مجرى الوادي، فيما يبدو. قد يكون قصد بهذا السد حجز المياه التي يحملها شعيب الأثايبة الذي يقع إلى أمامنا، وقد يدل على أنه في أزمان قديمة كانت زراعة الحبوب، على الأقل، تمتد مسافة إلى أسفل أكثر من حدودها الحالية عند منجم على مسافة ثلاثة أميال من هذا السد.

بدأنا البحث عن عدة خيارات للطريق ونحن على بعد ميل واحد، وفي شعيب الأثايبة الصعب الذي ينحدر في مجريين تفصلهما مسافة نصف الميل عبر انبعاج واسع للسهل الذي يسمى سعيد، من عند التلال التي بدت الآن بعيدة إلى الخلف وعلى يميننا.

وصلنا إلى مجموعة صغيرة من القصور بعد مسيرة ميلين آخرين، كانت متجمعة داخل سور عند طرف إحدى مزارع النخيل في آل منجم، حيث توجهنا إلى ساحة مكشوفة في وسط النخيل بجوار قرية زبيد الصغيرة حيث أمضيت أول ليلة لي في واحة نجران. كانت المسافة، عن طريق السيارات، من عند الحصينية حوالي (٣٠) ميلاً، علماً بأننا قد غطينا (٣٥) ميلاً عن طريق التحويل إلى تسلال. كان ارتفاعنا هنا (٤٥٠٠) قدم فوق سطح البحر، يتباهى قسم منجم التابع لنجران بأنه خالٍ من البعوض، وذلك، كما يقولون، لغياب البرك المائية، والمستنقعات والنزوز، والتي كانت كلها تضج بالبعوض قليلاً إلى الأمام من هذا الموقع.

أخذت الحكومة أحد قصور زبيد لتسكن فيه فرقة صغيرة من الشرطة ورفرف عليه علم السعوديين، الذي أصبح لونه أبيض مع تقدم الزمن، فوق السارية. كان المسؤول عن هذه الفرقة هو أسامة بن عبدالرحمن الذي اعتبر نفسه مضيفا لنا، وحقيقة فإنه قد فعل كل شيء لراحتنا. أخبرني خلال حديثه عن قصر الرئاسة للأمير، في قصر ابا السعود، أن عدد الجنود السعوديين كان ١٠٠ جندي نظامي و (١٠٠) رجل أمن، كانوا مستقرين. كما كانت هنالك ست نقاط شرطة منتشرة في الواحة، في آل منجم، (زبيد)، ورجلا، والأخدود، والحضن، ونهوقة،

والموفجة، وشعب بُرّان. كانت الحامية في زبيد مكوَّنة من عشرة رجال فقط، ولم يكن جميعهم حضوراً في ذلك الوقت، ولدهشتي، فقد وجدت نفسي وهم ينظرون إليَّ كأنني موظف حكومي مهم جداً في جولة تفقدية، وكان كل فرد منهم متطلعاً إلى أن يدلي إليَّ بكل ما لديه من معلومات. حتى القرويون، أحسوا بمقدم قوة شرائية سهلة وبالأمل في تصحيح مشاكلهم الثانوية، تجمعوا حول معسكرنا ومعهم من المؤن المعروضة للبيع بالكثافة التي اضطر معها الشرطة إلى إبعادهم عنا.

كان من الصعب عليَّ أن أوضح أنني لا أمانع إطلاقاً من مثل هذه المضايقات، وبمرور الزمن، تمكنت أن أقبض بيد من حديد ليس على الحشد، ولكن على الشرطة.

تزاحم الأطفال كالنحل من حولنا غير أنني شغلتهم في خدمتي فأرسلتهم يبحثون لي عن عينات من التاريخ الطبيعي لغرض إثراء مجموعتي مقابل العطايا الصغيرة التي كنت أقذفها دون اهتمام كبير ودون علمي بأن ذلك سيقود لخرابي. كانت الشمس على وشك الغروب حينما وصلنا، ولم يحدث شيء خلال الساعة أو الساعتين التي تلت ذلك، قبل أن يذهب بسطاء القرية إلى النوم، وكان بعضهم قد شاركنا وجبة العشاء، غير أننا لم نجد للراحة طعماً منذ الساعات الباكرة لصباح اليوم التالي. إذ يبدو أن كل أطفال القرية قد قاموا بسرقة كل أعشاش الطيور المحلية، ثم جاءوا ليضعوا الفراخ الصغيرة، تحت أقدامي! كان باكورة هذه الخدمات زوج من فراخ البلبل ثم تبعته هداهد صغيرة، وبدا لي أن ما قصده الصغار في آل منجم هو الحصول على ثروة وبأقل جهد. لكنهم اكتشفوا سريعاً أن

ما قدموه من صغار الطيور قد فاق وفاض على احتياجاتي وأنني لن أدفع ثمناً آخر لأكثر من عدد معين لنوع واحد من الكائنات، ثم انصرفوا على هذا الأساس، ليعودوا ومعهم ضفادع وسحالي وثعابين، وقد رحبت كثيراً بصنفين من الخفافيش. يحق لبعض كبار القرية أن يتشككوا في سلامة عقلي، غير أنهم أعجبوا باستعراضي لكرمي الفياض. كان من بين الحشد يهودي جذاب جداً، اسمه جميل الذي سأرى عن جاليته الصغيرة -التي تقيم بصفة مؤقتة في نجران داخل البوابة- الكثير خلال زيارتي هذه.

لما كان الغد هو يوم الجمعة فقد رأيت أنه من الأجدر بي أن أتراخى لفترة عند هذا الجانب للواحة لأتحاشى بذلك التطفل على الحاكم أثناء توجهه للصلاة وما يتبعها من استقبال رسمي. لذلك، وبعد أن تحصلت على ما بدا لي أنه نماذج مناسبة للمجموعة الحيوانية في آل منجم، توجهت إلى نقطة الشرطة لأتحاشى الحشد، ومن عند سطح المكان استطعت أن أقوم بمسح للواحة عن قرب وبسرور. كان بعض هذه القصور المحلية -وكل واحد منها كأنه قلعة رهيبة، وكما يقول مثلهم «قلعة النجراني هي منزله»- مؤلفاً من خمسة طوابق بينما كان معظمها مؤلفاً من أربعة طوابق وبعضها الآخر بثلاث طوابق فقط. كان كل قصر منفصلاً عن الآخر وعلى مرمى السهم من جيرانه إلاَّ في حالة قصور آل منجم، حيث يلاحظ ما يقارب نصف دستة من القصور وهي متلاصقة متقاربة أو داخل حظيرة مشتركة مما يعطي الانطباع بأنها قرية صغيرة[1]. لم أر في كل نجران حالة مماثلة لحياة المجتمع كما هي هنا.

(١) من يزور نجران في وقتنا الحالي فإنه يشاهد العديد من القرى والقصور القديمة المتناثرة في أجزاء عديدة من المنطقة، حبذا لو تم الاهتمام بمثل هذه الآثار القديمة في جميع أنحاء المناطق الجنوبية، وهذا مما يزيد في رصيدها السياحي والتنموي. (ابن جريس).

يجب أن أذكـر هنا، عرضـاً، أنه في أيام السلم، كـالتي عشناها منذ حـرب اليمن ١٩٣٤م، كان أهل نجران - إلى حد بعيد - يعـيشون في الساحات المكشوفة وبعيداً عن مزارع النخيل، داخل زرائب أو عشش من أعواد الأراك، ذلك لتحاشي حمى الواحة -خـاصة خلال موسم الأمطار حينـما يستقبل الوادي سـيول متكررة على فترات منتظمة.

رجعنا إلى السكن بالمركـز الرئيس بالقيادة بعد السـاعة الحادية عشرة صـباحاً تاركين مزارع الفرحـة ومواصلين السفر خـارجها على طرف وادي سعيـد الكبير، وقد انبعج إلى جهة الـشمال في خليج كثيف الشجر مسافـة ثلاثة أميال إلى موقع تتصل فيه شبه دائرة التي تكونها التلال إلى حزام النخيل في تعزة وتترك ممراً ضيقاً جداً يعبره الطريق. عبرنا فيمـا يلي هذا، حقلاً لنبات الحلفاء النجيلي على الجانب القريب من نخيل سكر والتي يطوّق الطريق حافتها الجنوبية. بدأ الطريق الآن يشق مساره عبر حقـول زراعية وعبر جسور محفوفة بالمخـاطر فوق مجاري الري العالية الجوانب، والتي وصلنا، فـيما يليها، إلى المـدخل الرئيس الشرقي للبناء الحكومي المستطيل العظيم الذي يعرف باسم قـصر أبالسعود[1]. لم تزد كل الرحلة من عند آل منجم عن سبعة أمـيال أو ما يقارب ذلك. كانت المسافـة من الحصينية أقل من (٣٧) ميـلاً بقليل، وكانت من عند تفرع طريق أبهـا - نجران إلى الوراء البعـيد، حوالي (٢٦٠) ميلاً (٤١٥ كيلومتراً حسب تسجيل عداد السرعة).

لقد استقبلت عند المدخل استقبـالاً رسمياً على رأسه سالم، القائد العسكري المحلي للقوات والشرطة، ومـعه فرقة من حرس الشـرف، ثم أوصلونا إلى البوابة

(١) قصر أبو السعود:ـ بناء يتكون من دورين ونصف بالإضافة إلى مرافق وغرف عديدة ملحقة به. ويقع في وسط البلد، وأصبح اليوم من المعالم الرئيسـة في منطقة نجران يرتاده السواح والمصطافون من كل مكان. (ابن جريس).

المركزية التي تقع إلى الجنوب والتي كانت الغرف الواسعة التي حجزت لي ولرفاقي فيما يليها. سيكون هذا مقري مدة شهر على الأقل إلى حين أن أبدأ رحلتي الطويلة إلى شبوة في الرابع والعشرين من يونيو.

تركت زملائي لتفريغ السيارات وتنظيم العفش ورافقت سالماً والأعضاء الرئيسين لمجموعتي للذهاب إلى قاعة الاستقبال في منزل الأمير حيث قابلني إبراهيم النشمي بترحيب شديد وهو أحد الأفراد البارزين في الجزيرة العربية الحديثة. كان إبراهيم بحكم عمله تاجراً من سكان القصيم، وفي هذا الإطار فهو رجل مهم بين تجار القوافل (العقيلات) على طرق الأردن وسوريا. لقد نجح تماماً في هذا المجال خاصة أثناء الحرب العظمى، غير أنه برز عسكرياً خلال حصار المدينة الذي قام به السعوديون عام ١٩٢٥م. ذهب إلى هناك ضمن جيش الأمير محمد، عندما قرر ابن سعود سحب قوة الإخوان بقيادة فيصل الدويش على أمل أن تستسلم المدينة، تحت ضمان بالمعاملة الإنسانية من جانب المنتصرين. كانت المدينة في ضائقة شديدة بالنسبة للطعام. وأعلن النشمي، الذي كان قائداً على المنافذ الشرقية، أن كل المواطنين الذين يستطيعون الهروب من المدينة سيتم الترحيب بهم في معسكره ويؤمن لهم كل احتياجاتهم. قوبل عرضه بالترحيب على مستوى كبير وكان اسمه على لسان كل أسرة في المدينة، مما قاد إلى الاستسلام في (٥/ ديسمبر/ ١٩٢٥م.

ظل النشمي في خدمة الحكومة وكانت آخر مرة قابلته فيها في ينبع حين كان أميراً عليها، لبعض السنوات قبل زيارتي إلى نجران، ومنذ الحرب اليمنية كان النشمي يشغل نفسه وبنجاح في أداء الواجب الصعب لتهدئة واحدة من أكثر

مناطق الجزيرة العربية اضطراباً. غير أنه أعفى من منصبه في العام التالي، وتم نقله إلى إدارة المشروع الحكومي الزراعي الكبير في الخرج[١]، حيث تمكن بالفعل من تحويل الصحراء إلى جنة كأنها الورود حينما زرته عام ١٩٤٠م[٢]. لقد شغل -بالمناسبة- قائداً عسكرياً، أثناء حرب اليمن، وكان مسؤولاً عن القوات الاحتياطية في أبي عريش مسانداً لحملة فيصل في تهامة.

وجدته الآن متحمساً لتاريخ وتقاليد نجران، وأخبرني أنه يتحرى الآن بعض الشائعات التي أطلقها زائر من صعدة عن وجود أعمال تاريخية قديمة في نجران. كان النشمي سعيداً لسماعه اكتشافاتي الشخصية في تصلال وفي سهل المنقع (قطن) كما لَمَّح لي، في كلمات قليلة، أن تحضيراته لي حول رحلتي إلى الجنوب تسير بصورة حسنة. تحدث النشمي لفترة عن مشروعي لإعداد خريطة للحدود اليمنية ووعد بالمساهمة إلى أقصى حد في استكشافي لنجران نفسها.

ذهبت بعد ذلك لزيارة الموظف الرئيس المسؤول عن أموال الدولة في المنطقة ويسمى **سيد علي الجنيدي**، والذي سبق لي أن قابلته وهو في موقع مماثل في العلا عام ١٩٣١م. قدم لي سيد طبقاً، على سبيل التسلية، لعنب أبيض لذيذ من وادي الفرع المجاور، عبر الحدود، حيث تقوم زراعة العنب على مستوى تجاري كبير. ينمو العنب الممتاز في وادي نجران، ولكن، ولسبب ما، لعله عدم الأمان

(١) ثم عُيّن أميراً للخرج من غرة محرم (١٣٦٣هـ) إلى غرة محرم (١٣٦٦هـ) إلاّ إنه مكث في الخرج قرابة ثمانية عشر عاماً أي من (١٣٥٧هـ) إلى (١٣٧٥هـ). وتوفي سنة (١٣٩٨هـ) في لندن ودفن في مقبرة العدل في مكة المكرمة. للمزيد انظر: عبدالرحمن السبيت. **رجال وذكريات مع عبدالعزيز**. ص١٨ ــ ٤٩ . (ابن جريس)

(٢) يعيش الآن - وقد تقاعد - في الخرج في مزرعته الخاصة. (المؤلف).

القديم، فإن زراعة العنب قد أهملت كمحصول تجاري[١]. تضمن كرم السيد علي أيضاً تقديمه سيجارة لي غير أنه أدرك أنني أفضل تدخين الغليون، وكنا ندخن في استرخاء حينما دخل علينا الأمير. رجاني الأمير أن أواصل التدخين غير أنني أطفأت غليوني، كان من عادتي ألاَّ أدخن في حضرة موظفي الحكومة الكبار، إذعاناً للأمر العام بمنع التدخين، والذي -على أي حال- لم يعد معمولاً به الآن.

اجتمعنا كلنا عند الساعة الرابعة مساء في سكن الأمير، وهو بناء كبير، ومشتت إلى حد ما، غير أنه جديد، ومن طابقين ويقع داخل فناء القصر الضخم وفي مقابل البوابة الجنوبية. كانت الدعوة للعشاء قد وجهت أيضاً لكل الموظفين المحليين الرئيسين، لمقابلتنا في تلك المناسبة وقد قابلت من بينهم، ولأول مرة قاضي نجران الذي جمع بين الصلاحيات الشرعية والقضائية، الشيخ عبدالمحسن، وهو من مواطني عنيزة. وقد كان كثير الاهتمام بالشؤون الجغرافية وتساءل عن أعمال المسح، وتحديد دوائر العرض، إلخ. كما يبدو أنه منهمك في تأليف كتاب عن قبائل منطقة نجران وتاريخها القديم. تناولنا في العشاء إلى جانب لحم الضأن والأرز -وقد كانا في غاية الامتياز- عناقيد عنب نجران من حديقة مجاورة، وليست في جودة تلك التي وصلت من وادي الفرع المجاور وعبر الحدود غير أنها جيدة بما يكفي.

---

(١) نجران أرض غنية بمزارعها ومنتوجاتها الزراعية منذ القدم، وقد ذكرتها كثير من كتب التراث الإسلامي، ووضحت نوعيه المحاصيل الزراعية التي تشتهر بها أرض نجران، لمزيد من التفاصيل عن دور نجران الزراعي، انظر: الهمداني، **صفة**، ٣٤٥ ــ ٣٦١؛ محمد الإدريسي، كتاب **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**. (بيروت: عالم الكتب، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م) جـ١، ص ١٥١، أبو القاسم الاصطخري، **مسالك الممالك** (بيروت: دار صادر، د.ت) ص٢٤، عماد الدين إسماعيل أبو الفداء، **تقويم البلدان** (طبع في مدينة باريس بدار الطباعة السلطانية، ١٨٤٠م) ص ٩٣ .

نما إلى علمي أن أهل نجران، وإلى وقت قريب، كانوا يتحاشون تناول الخضراوات من أي نوع كانت، باعتقاد أنها كانت سبباً لحمى الواحة، غير أنهم في الفترة الأخيرة عملوا على نهج حركة التنوير للدعوة السلفية الجديدة ومنذ ذلك الحين وزراعة الخضراوات في ازدياد. شجع النشمي هذا الاتجاه إلى أقصى حد، وظهرت على مائدته وبانتظام الطماطم الممتازة، والباذنجان، وأصابع السيدة (البامية) وخضراوات أخرى[١]. كان رجلاً ذا حماس شديد. وكان محدثاً عظيماً وذكياً، مع ميل عنده إلى السيادة في النقاش، إذ أنه مثقف إلى حد بعيد وتقدمي. كان النشمي حقيقة أشبه ما يكون بسلك كهربائي حي. شديد البطش بما فيه الكفاية على المولعين بالأذى، غير أنه إنسان عطوف تجاه الضعفاء والمحتاجين. خرج النشمي يتمشى مع الشيخ بعد العشاء إلى طرف مجرى الوادي، بينما اجتمعت في سكن علي الجنيدي[٢] مع القائد سالم، وموظفين آخرين لتناول القهوة والتدخين، وأمضينا ساعة أو ساعتين في تجاذب أطراف الحديث.

أخبرت بأن القوات اليمنية قد مكثت مدة ثمانية أشهر محتلة لنجران من خريف عام ١٩٣٣م إلى ربيع ١٩٣٤م، حينما تمكن السعوديون من طردهم أخيراً. لقد حطموا عدداً من القصور أثناء احتلالهم - وقد رأيت واحداً منها عبر الوادي، في زبيد، موطن ابن مرضي بجوار مزرعة نخيل عمير - ومزارع نخيل يملكها أناس ينظرون إليهم في شكوك، يضمرون العداوة أو فاترين. كان الشيخ القحطاني ابن مذكر يقود الكتيبة السعودية التي دخلت وادي نجران عن طريق وادي الأثايبة

(١) ويُصدَّر اليوم من نجران إلى أسواق كثيرة في المملكة بعض المنتوجات الزراعية من الخضروات والفواكه المتنوعة. (ابن جريس).

(٢) لم يستقر فيلبي على اسم واحد للجنيدي، فيذكرة مرة (سيد) وأخرى (علي)، واعتقد أن اسمه سيد بن علي الجنيدي لتكرار هذا الاسم أكثر من مرة عند فيلبي. (ابن جريس).

وانتشرت فوق سهل سعيد، الذي كانت تحت إمرته أعداد كبيرة من البنادق والمدافع الرشاشة، وسرعان ما جعل موقف اليمنيين، الضعيفي التسليح، صعباً لا يطاق. كان العشر في محصول التمر هو مصدر الدخل الرئيس لخزينة الحكومة في نجران، وكان يدفع عادة من جنس المحصول. جلب المحصول السابق للحكومة نصيباً يقدر بـ (١٥٠٠) فرق، ويعادل الفرق (٢٤) صاعاً، أو إجمالي (٣٦٠٠٠) صاع، مما يدل على المحصول الإجمالي كان (٣٦٠,٠٠٠) صاع -صاع نجران أقل من صاع مكة-، على أقل تقدير. وإذا أخذنا سعر الصاع الذي يزن أربعة كيلوجرامات في أبها (٣,٨٦ كجم) فإن المحصول النهائي سيكون حوالي (١,٤٤٠,٠٠٠) كجم، ولكنه ربما كان أكثر من ذلك، لنقل مليونين من الكيلوجرامات[١].

رافقت الأمير صباح اليوم التالي في دورة تفتيش أولية استكشافيه لأطلال الأخدود، التي سأحتفظ بوصفها إلى فصل خاص بها. كان علينا أن نعبر في طريقنا مجرى الوادي الواسع، غير أن سيارتي غاصت في المستنقع، وقد تركتها للآخرين ليخرجوها من المأزق وسرت مترجلاً بقية مسافة المجرى لألحق بالأمير وجماعته الذين كانوا في انتظاري في ظل بعض الصخور على جانب الوادي البعيد. أمضينا فترة النهار، في طريق العودة، في مزارع نخيل الحضن، وقد لحق بنا جابر بن نصيب، (ثالث الأشقاء) وأيضاً سالم بن منيف أكبر أبناء سلطان وهو شيخ قبيلة جشم يام[٢]. كما تجولت في أنحاء مزرعة النخيل بحثاً عن الطيور في

(١) لمزيد من الإيضاح عن الأوزان والمقاييس في جنوبي البلاد السعودية خلال القرن الرابع عشر الهجري، انظر: مبارك المعبدي. **النظم الإدارية والمالية في تهامة عسير خلال الإشراف السعودي (١٣٤٥ ـ ١٣٥١هـ)** ص ٢٠٤،٩٤؛ ابن جريس، **عسير ١١٠٠ ـ ١٤٠٠هـ**، ص ١٨٧ ـ ١٨٩ . (ابن جريس).

(٢) تعود زعامة قبائل يام إلى ثلاثة مشائخ أساسيين هم: ـ ابن نصيب، وابن منيف، وأبو ساق. ولمزيد من التفاصيل انظر: فؤاد حمزة. **في بلاد عسير** (الرياض: مكتبة النصر، ١٣٧٠هـ / ١٩٥٠م) ص ١٧٦ ـ ١٨٠ . (ابن جريس).

صحبة مجموعة من الصبية الصغار وعدنا إلى قصر أبالسعود في وقت متأخر من العصر، وفي الوقت المناسب لتناول العشاء بمنزل علي الجنيدي. كانت هنالك قطرات مطر قليلة عند المغرب (٢٧ يونيو)، وظل الطقس لعدة أيام غير مستقر، كأنما يتهيأ لعاصفة. تداخلت الظواهر الجوية الكهربائية مع استقبال جهاز اللاسلكي. كانت أقصى درجة حرارة في الظل أثناء النهار ١٠٤ درجات وكانت الدرجة الدنيا في الليلة السابقة ٧٢ درجة، وبرهنت الأحوال الجوية لمنتصف الصيف في نجران أنها مريحة بدرجة مدهشة.

كان من بين زائريَّ في صباح اليوم التالي، شخصية قيادية لجالية صغيرة يهودية في نجران، والذي كنت قد سمعت عنه من قبل في أبها أنه خبير في الآثار القديمة. اسمه يوسف، رجل في منتصف العمر، ذو جاذبية وجميل خارج المألوف. سأراه والعديد من مجموعته الدينية كثيراً هذه الأيام، لجمع كل الحقائق عن تاريخهم ونشاطاتهم والتي سأناقشها كاملة في وقت لاحق[١].

أعد لي الأمير، في هذه الأثناء، برنامجاً ليوم كامل لفحص بعض الآبار المهجورة القديمة والأطلال عند مقرن مسيل نهوقة مع الوادي تحت سفوح سلسلة أبو همدان وخلف مزارع الحضن. كان الإحساس بقيمة الماء ملموساً في أوساط العرب، فقد خطر بباله أن وجود مجموعة من الآبار القديمة عند ذيل بطن السيل في وادي نهوقة، عند البقعة التي يلتف فيها إلى أسفل عبر مجموعات نخيل

(١) كان في بلاد نجران وما حولها من المناطق بعض الأسر اليهودية المحدودة خلال القرن الرابع عشر الهجري (العشرين الميلادي)، ثم هاجر معظمها إلى اليمن أو إلى فلسطين، في حين أن عدداً قليلاً منهم ترك اليهودية ودخل الإسلام وبقي في موطنه حتى الآن. (ابن جريس).

الحضن والبديع[١]، إلى الوادي الرئيس، يمكن إحياؤها بواسطة هندسة بسيطة وكان الغرض من الزيارة هو تفقد تقدم العمل الذي بدأه هو بالفعل على هذه الأسس خلال هذه النزهة والتي اختتمت بعشاء في العراء في الدلتا العريضة لوادي نهوقة، بينما خلد هو إلى الراحة بعد أن فحصنا الآبار[٢]، وانطلقت أنا في حرية مستكشفاً واحة نجران وتمكنت أن أصعد قمة أبو همدان في صحبة جابر بن نصيب وأحد رجال قبيلته لمواجد، واسمه مسفر، وهو رجل صموت، قليل الكلام ذو زخم موسوعي بالمعرفة حول جغرافية نجران. كان جابر بطيئاً في الاستيعاب ويميل إلى أن يكون خنوعاً، وبدا لي أنه أحسن من شقيقيه الآخرين خاصة في مقدرته تسلق السفوح الشديدة الانحدار، الصعبة، والصخرية في جبل أبو همدان، وهو حافي القدمين – كل هذا دفعني لتفضيله وبقوة. صار فيما بعد مرافقاً مستديماً لي في كل تجولاتي، وكل ما أتمناه له أن يكون قد ارتاح لما كنت أسقطه من فتات مودتي على أمثاله.

شمخت قمة أبو همدان إلى (١٢٠٠) قدم فوق مستوى وادي نهوقة الذي تقع أسفلها، وقد أمكنني أن أطل منها على منظر عام للواحة، ومن الطرف إلى الآخر كما كنت أتمنى. كان التل والسلسلة التي وقف عليها من جرانيت مع مساحات متكررة من كوارتز، على عكس جلاميد وادي نهوقة إلى الخلف، وفي الحقيقة فإن الجلاميد على الجانب الأيمن لوادي نجران، يكون فيها الحجر الرملي

(١) البديع يسمى أيضاً (البديعة). (ابن جريس).

(٢) من خلال جولاني في نجران خلال صيف عام (١٤٢٣هـ / ٢٠٠٤م)، تم مشاهدة العديد من الآبار المنتشرة في منطقة نجران والتي يعود تاريخ بعضها إلى الوراء مئات السنين، ومنها الذي ظهر عليه الخراب والدمار، وبعضها الآخر لا زالت تستخدم في الزراعة، وأحياناً يحتاجها البدو في سقي مواشيهم. (ابن جريس).

موضعاً فوق الأساس الجرانيتي وإلى عمق مـئات الأقدام. كان الوقت متأخراً فترة ما بعد الظهـر، لسوء الحظ، عندما وصلنا إلى القمـة وعلينا أن نعود من عند هذه الجلاميد قبل حلول الظلام، وفي الحقيقة، لم نتمكن من الوصول إلى منتجعنا في الوادي إلا بعد غـروب الشمس، وقد ثبـتت لنا أهمية هذا المعـسكر الدائم للقائد سالم، والذي فيـه تفضل أسرته استنشاق هواء الصـحراء الصحي، بدلاً عن ذلك الهواء الخانق في مسكنهم في قـصر أبالسعود. كان مضيـفنا سالم في هذه المناسبة قد أعـد لنا عشاء فاخـراً، غير أنني شعـرت بالأسف إذ أنه لم يتبق لي كثـير من الوقت لمسح المنطقـة من عند قمـة أبو همدان، والذي أترك الحـديث عن سمـاته العامة إلى مـرحلة لاحقة من قصـتي. لم نتباطأ طويلاً بعد أن تناولنـا العشاء في معسكر سالم وقدنا السيارة مع الأمير في الظلام.

كان اليوم التالي (٢٩ يونيو) هو يوم الإثنين، أحد اليـومين الذين يعقد فيهما السوق الأسبوعي في نجران - كان اليوم الآخر هو الخميس. يقام سوق الإثنين في أرض الاستعـراض الكبيرة المكشوفة أو السـاحة المخصصة للمـعسكرات والتي تمتد من عند الجدار الجنوبي لقـصر أبالسعود إلى حـيث الحافة العريضـة للغطاء النباتي المكوَّن من شـوك الجـمل، والقصـب والأراك، إلخ- على امتـداد الجـانب الأيمن للوادي. يقف صف من المتـاجـر وحيـدة الطابق، على الجـانب البـعيـد من هذه الساحة، مقابل القـصر، وكلها مبنية من اللبن، وقد أقامتـها الحكومة وتم تأجيرها إلى التجار الذين يرغبـون في تخزين بضائعهم. ينصب بقية البائعين خيـاماً مؤقتة أينما كان ذلك مناسباً أو ممكنًا ويقوم الحشد الكبير من الناس بالطواف، أو التجمع حول المتاجر والأكشاك يشترون مـا يريدون، أو يراقبون عمليات البيع والشراء من زملائهم فقط، أو يتحدثون.

كانت السيدات بكثافة عددية ملحوظة أيضاً، ومعظمهن متسخات، وفي أسمال بالية، كأزواجهن وأشقائهن. رأيت إحداهن ويجب أن أضيف أنها تبدو فاقدة لعقلها وهي تطوف أمام القصر في مرأى من حشد من الجنود ورجال الشرطة، وهي متراخية في ظل جداره. كانت أيام الأسواق هذه مناسبات عظيمة للفتيات المحليات ليرين أزواج المستقبل أو الواعدين منهم وكذلك ليراهن الشباب من العزَّاب وكانت الفتيات غير المتزوجات يأتين إلى سوق الجمعة في أحسن تسريحة لشعورهن وقد قمن بدهنه وتشحيمه وتجعيده طبقاً لآخر موضة.

كان اللون المحبوب والشائع هو الأزرق الداكن والذي يستخلصونه من النيلة (اندقو) المحلية، والذي كان يستخدم أيضاً كدهان للبشرة، ويكسب الأذرع والوجه مسحة مزرقة لامعة.

يرفع السوق عند حلول وقت صلاة الظهر، غير أنه في هذه المرة كان مملاً مما دفعنا إلى مغادرته مبكراً، مع جابر بن نصيب وزميلي مسفر وفرج المخلصين، وكلهم من مجموعتي، وقمنا بجولة على ظهور الحمير لتفقد الوادي إلى عند الموفجة وهي أعلى قرى نجران وكذلك خليج المضيق وسنذكره فيما بعد.

نزلنا ضيوفاً على نقطة الشرطة المحلية، في الموفجة لتناول بعض الشاي والقهوة، التي يحتلها حوالي نصف دستة من رجال مرحين، معظمهم من الحجاز، يخففون عن نفيهم لأرض أدركها الظلام، وأكثر ما زادهم خفة هو حقيقة أن رواتبهم لم تدفع لهم منذ أربعة أشهر، ويراودهم أمل ضعيف لأي تحسن متوقع وقريب[1]. كانوا متعجبين ومهتمين ببحثي في الطيور والحيوانات وأكثر ما أعجبهم إحساسهم بأنني أكسب من وراء هذا العمل.

(١) واليوم أصبحت نجران من البلاد التي نالها جزء من النمو والتطور الذي شمل أنحاء المملكة العربية السعودية. (ابن جريس).

استغـرقت الرحلة ساعة وثلاثة أرباع السـاعة، في سرعة متـوازنة للعودة من الموفجة إلى قصر أبالسـعود. وهي مسافة تقدر بثمانيـة أو تسعة أميال يكون الطول الإجمالي للواحة، من الموفـجة إلى آل منجَّم، على هذا الأسـاس حوالي (١٥) أو (١٦) ميـلاً. وتكون المسـافة من الموفـجة إلى بئـر الخضـراء، وهما النقطـتان الطرفيتـان لوادي نجران، حوالي (٣١) ميلاً على الأكـثر. يكون عرض الوادي في المتوسط من ميلين إلى مـيلين ونصف الميل من الجانب إلى الآخر، وأن نصف هذه المسافة حزام من النخيل المتقطع.

مررنا بالحديقـة الجميلة المسوَّرة، التي تسمى خـشيوة، ونحن في طريقنا إلى الموفجة، مقر رئاسة المكارمة بنجران[1]، وزرنا قلعتها الكبيرة المدمرة، وتدعى عَانْ المكارمة، وهي لا تزال قائمة في صورة جـذابة فوق جرف عالٍ يبرز من فوق تلال الجانب اليـسار لمجرى الوادي، مقـابل أبو همدان. وجدنا القلعة ليـست فقط في حالة مدمرة، ولكنهـا أيضاً مهجورة تماماً، ذلك لأن كل ساكنيهـا كانوا معسكرين في وادي نهوقة، عدا امرأتين أو ثلاث، من الخادمـات يقمن بالإشراف عليها. لم يكن لديهن شاي أو قهوة ليقدمنها لنا، ويبـدو أنه لا يوجد ما يؤكل غير دجاجات هزيلة. كانت الغـرف خالية مـن الأثاث من أي نوع كان، وهي مجـرد أكواخ مع محـاولات ضعيـفة لصور جـدارية كضرب من الزينة. يـبدو البناء، قوياً بما فـيه الكفاية من الخارج، غيـر أن عملية بنائه كانت ضعيفـة. كانت هنالك نقوش قليلة

(١) المكارمة: ــ نسبة إلى الداعي الإسـماعيلي المسمى محمد بـن إسماعيل المكرمي (ت ١١٢٩هـ)، والذي هرب من بلدة طيبة في اليمن إلى أن استقر به القرار في نجران، ثم نشر مذهبه (المذهب الإسماعيلي) بين سكان نجران اليامين، وأصـبح هو وخلفه أصحاب الزعامة الروحية علـى معظم سكان المنطقة. للمزيد، انظر: فؤاد حمزة. **في بلاد عسير**، ص ١٧٢ ــ ١٧٥ . (ابن جريس).

على سطح الصخور باللغة العربية العادية، إلى جانب رسومات ضعيفة جداً للحيوانات. كما توجد قلعتان مدمرتان تابعتان للمكارمة، يمثلان أول القرى للمكارمة في منطقة نجران، ويقعان إلى مسافة أبعد، باتجاه أعلى الوادي على جانب تل لرافد يسمى شعب برّان.

ثبت لديَّ أن الأمير متحمس جداً للمساعدة في مشاريعي المختلفة كما كان القاضي أيضاً مهتماً بها. كان هنالك احتمال التأخير، ذلك بسب ندرة البترول في نجران ولا بد من الانتظار إلى حين وصول إمدادات مستعجلة ترسل من مكة، والمفترض أنها في الطريق الآن. لقد استهلكنا عشرة براميل سعة (١٢) جالوناً من البترول، لعرباتنا الثلاثة من أبها إلى نجران، مسافة تقدر بـ (٣٠٠) ميل. أعطى هذا متوسطاً ضعيفاً جداً، حيث غطى الجالون الواحد في المتوسط (٧,٥) أميال لكل سيارة، غير أن الشاحنة لا بد أن تكون قد استهلكت ضعف ما استهلكته أي من السيارتين الأخريين. كانت النتائج، مع ذلك، مزعجة إلى حد بعيد، وسنحتاج إلى كمية كبيرة جداً من الوقود قبل أن نحاول الشروع في تنفيذ هذه الرحلة الطويلة إلى الجنوب والتي لن نستطيع في أثنائها أن نعوض ما فقدناه قبل الوصول إلى شبام. كان عليَّ أيضاً أن أنتظر وصول سيارة البريد، والتي لا نعلم شيئاً عن برامج إرسالها، ولزيادة متاعبي، فإن محطة لاسلكي نجران لم تسمح لي باستلام رسائلي المشفرة، إلى مكتبي في جدة بل طلبوا مني أن أقوم بإرسال كل مراسلاتي التلغرافية علناً.

قررت بكل ما لديَّ من حكمة مواجهة إقامة مؤقتة غير أنها ستكون طويلة في نجران. يوجد برغم ذلك، الكثير الذي يمكن رؤيته هنا، ولم أكن في عجلة من أمري إلاَّ أن هنالك إحساسي العصبي الذي ينتابني من حين لآخر بأن الملك قد

يغير رأيه حـول مشاريعي ويقوض برنامـجي. لقد استنزفت ستة أسـابيع مع نهاية يونيو من جـملة الوقت المحدد في برامجي الذي تضـمن (٤٥) يوماً كحـد أقصى «في نجـران» لتغطيـة خططي لرحلة إلى الجنوب. تبـقَّى لي بناء على هذا، فـقط ثلاثون يوماً من مدة (٧٢) يوماً (حداً أقصى) المتوقـعة للرحلة الخارجية، من بينها (٢٤) يومـاً ستمـضي في نجران قـبل أن أبدأ رحلتي للجنوب، وبذلك أكـون في مأمن من أي ملاحقة أو أي استدعاء.

تناوبتني هذه المخـاوف على فتـرات متـقطعة. شـغلتني نجران تمامـاً في هذه الأثناء، في اليـوم الثلاثين من يونيو - وبـترتيب مع الأميـر - غادرت قـصر أبي السعود لزيارة مطولة إلى الأخدود، والتي لم أرجع منها إلى مقر الإمارة الاَّ عصر الثامن من يوليـو. دعاني الأمير، في تلك الأمـسية إلى تناول العشـاء، في حفل كبير حـضره القاضي والقائد سالم، وعلي الجنيدي، وغيـرهم، كلهم كان متطلعاً ليسمع عن استكشافاتي لأطلال نجران. كان الأمير نفسه غائباً عصر ذلك اليوم في مـهمـة لوضع حد للنزاع الذي وقـع بين أبي ساق وابن منيف حـول أرض في آل منجم، لقد قابلته عند حضوري وهو يتهـيأ لذلك، وقد أبلغني حينها بالأخبار بأن فريقاً علمياً مصرياً قد وصل إلى اليمن برئاسة سليمان أحمد حزيِّن، إلاَّ أن الإمام رفض السماح لهم بزيارة مأرب (وشبوة).

كانت هذه أخبار مفـرحة بالنسبة لي فيما يخص أهدافي المتعلقـة بشبوة، غير أنه يدور الحديث أن تلك البـعثة بعد أن زارت وادي خريد ووادي عـمران والقفلة ربما كانوا يخططون للوصول إلى نجران عن طريق صـعدة؟ وكنت متطلعاً أن أغادر نجران قبل وصولهم، ولم يتحقق هذا مـطلقاً، ذلك لأن الإمام رفض الإذن للبعثة

بزيارة صعدة وكان متشوقاً أن يحرمهم التمتع بكرم أراضي السعوديين. أشعر الآن بالأمان وذلك حينما نقل إليَّ علي جنيدي الأخبار الممتازة بوصول حاجتنا من البترول أثناء غيابي في الأخدود. والآن سأتناول استقصاءاتي لذلك المكان في فصل قائم بذاته.

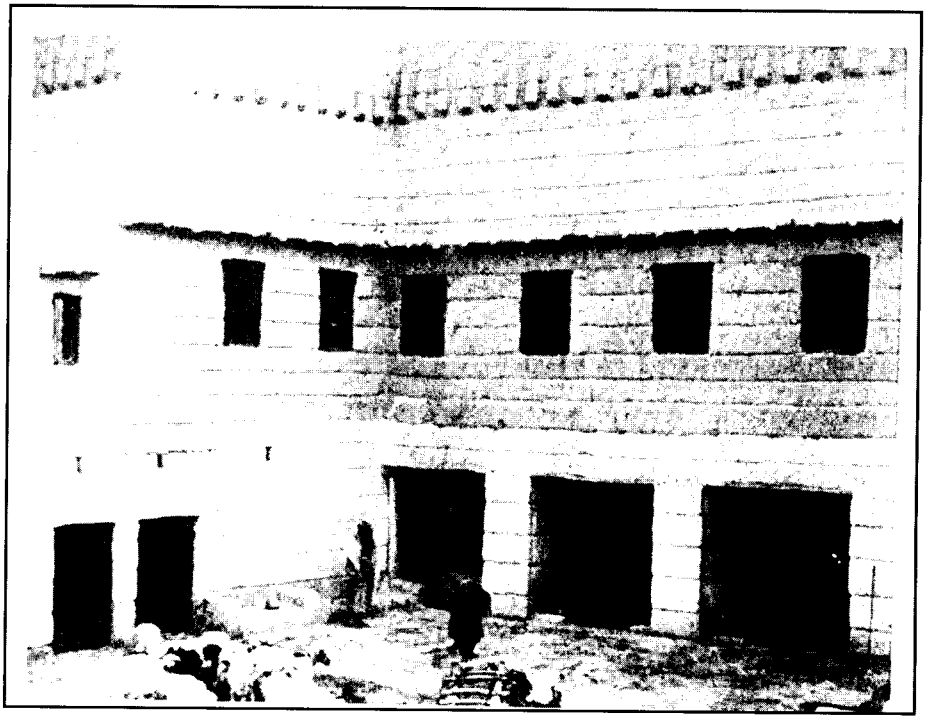

منزل وحديقة سعيد بن كدسة في بيشة

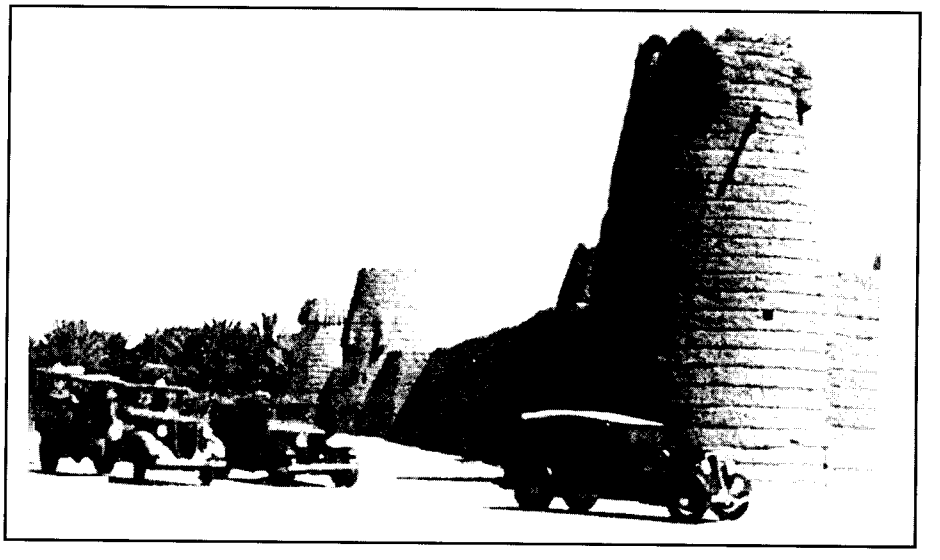

مغادرة قصر الروشن (بيشة)

عيون فضية وبجوارها بدو وأغنام

ثلاثة أجيال نسائية بجوار بئر جديد بالقرب من وسيط (خيبر)

سعيد بن مشيط بجوار باب القصر في ذهبان

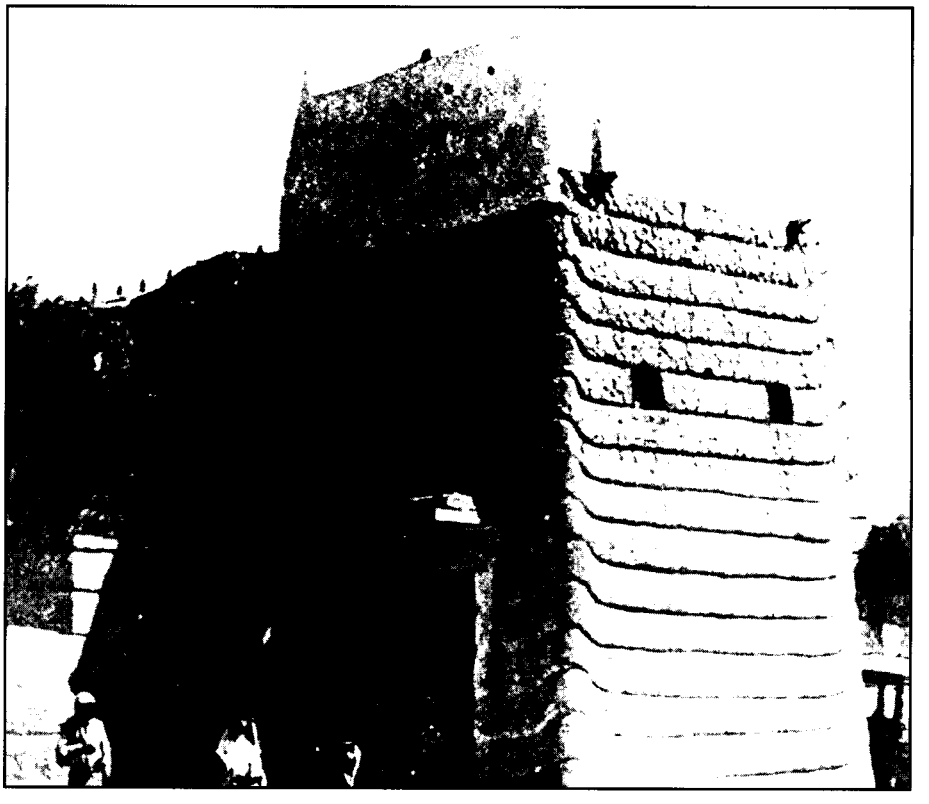

قصر أبي ملحة في خميس مشيط

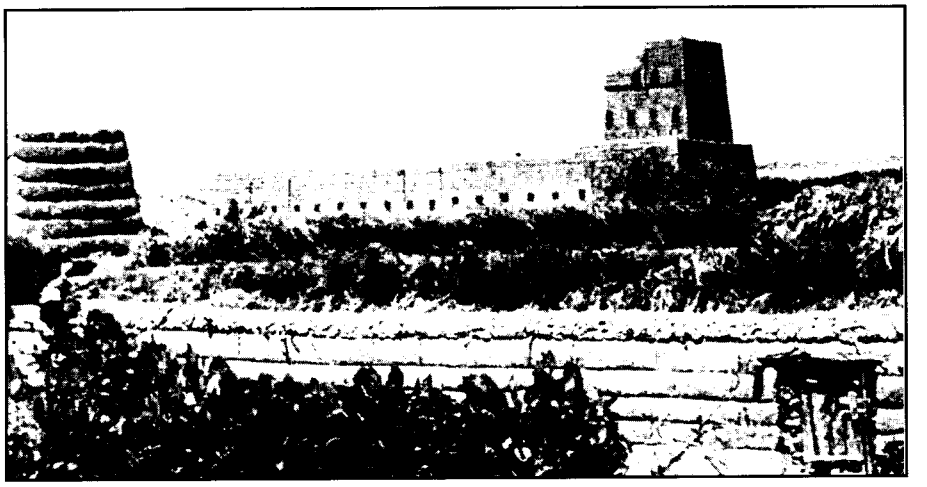

قصر وحديقة سعيد بن مشيط في ذهبان (خميس مشيط)

صخرة ذات نقوش بالقرب من خميس مشيط

الطريق الرئيس إلى محايل والقنفذة ماراً عبر جناح قرية مناظر في أبها

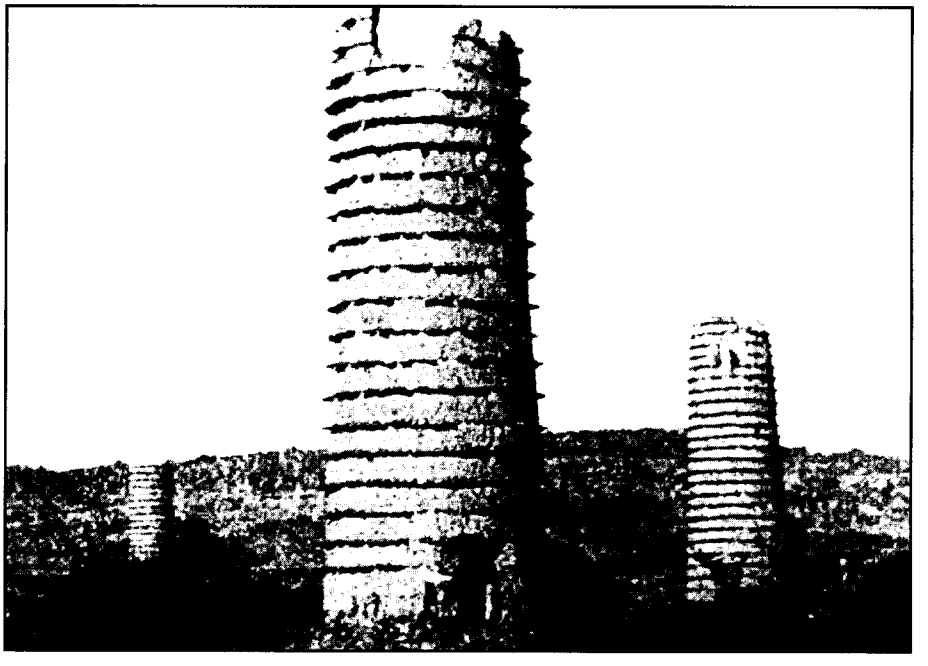

قرية حجلا في الطريق إلى أبها

نجران: صخرة معلقة ذات نقوش في حمر حورية

عالي ومحمد من قرية السودة في الجبال

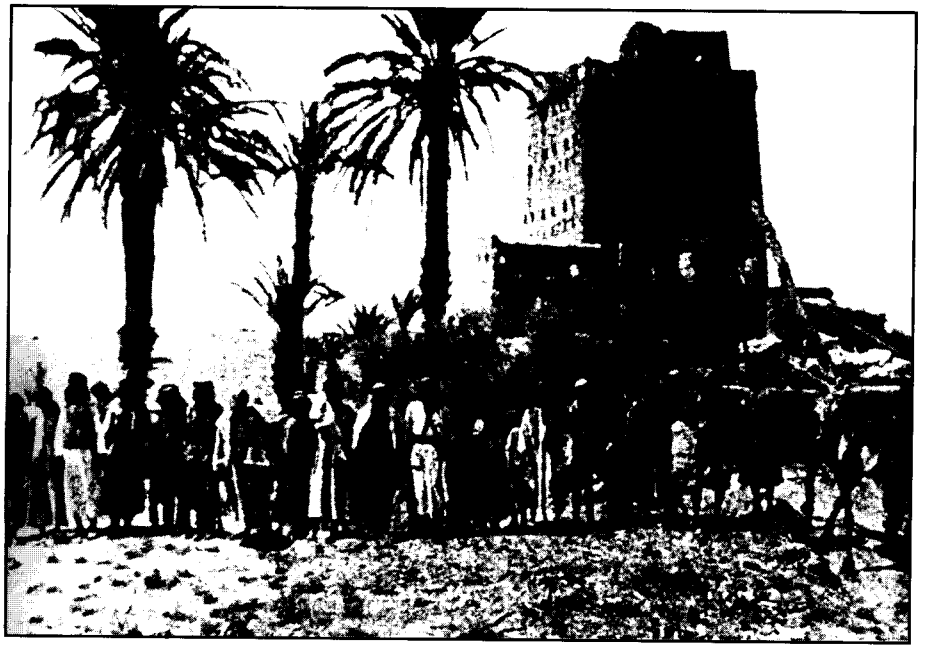

نجران : مجموعة من أهل زبدة بجوار بئر

معبد الشمس في المنقع

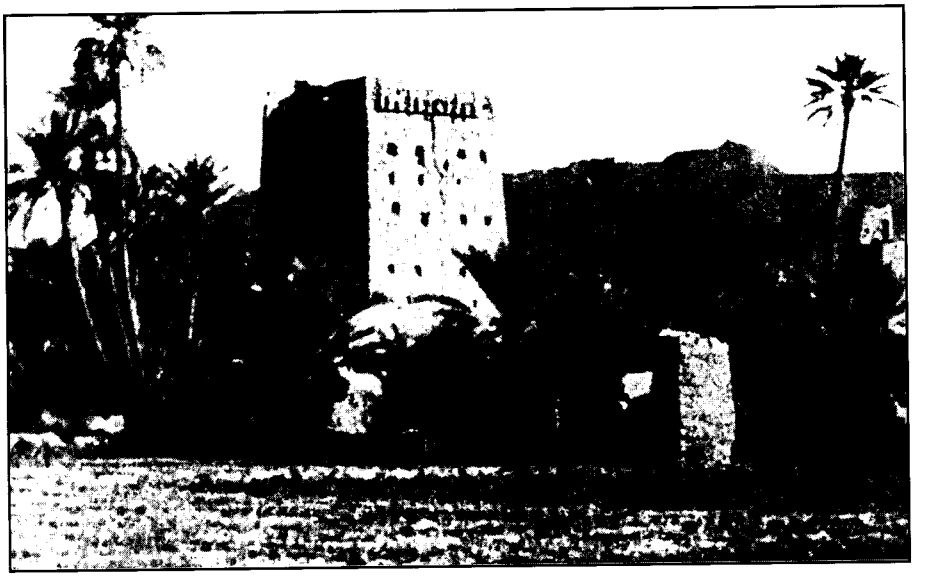

نجران: قرية سلف الصغيرة في القابل

نجران: خيمة سلطان بن منيف بالقرب من الهفوف

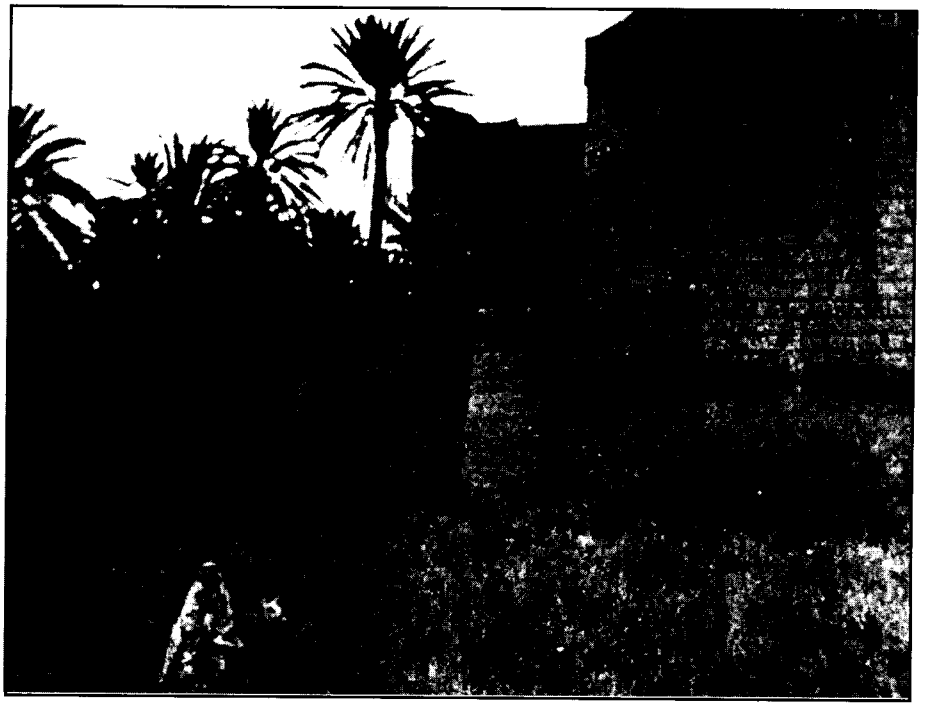

نجران: قصر في رجلا

نجران: صور صخرية بالقرب من أم خرق

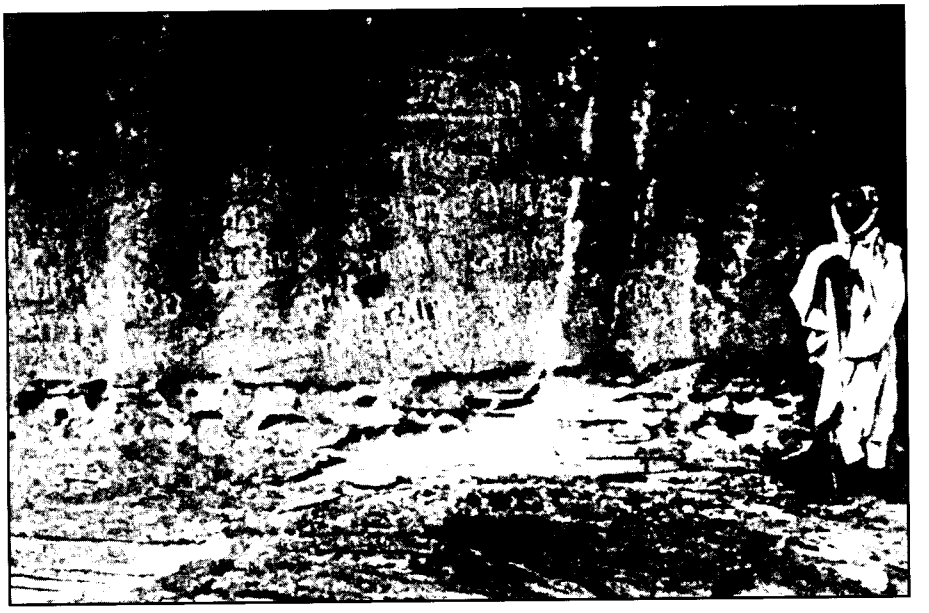

نجران: نقوش في قمة كهف عرير

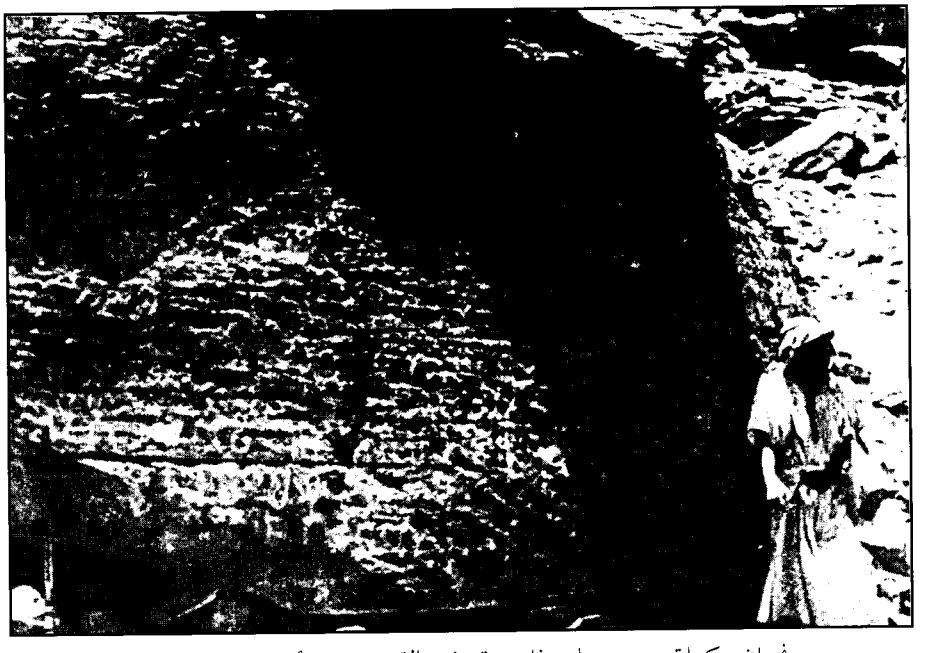

نجران: كتلة حجر رملي ذات نقوش بالقرب من رأس شعيب نهيقة

نجران : مجموعة اليهود في نجران في أوكلا

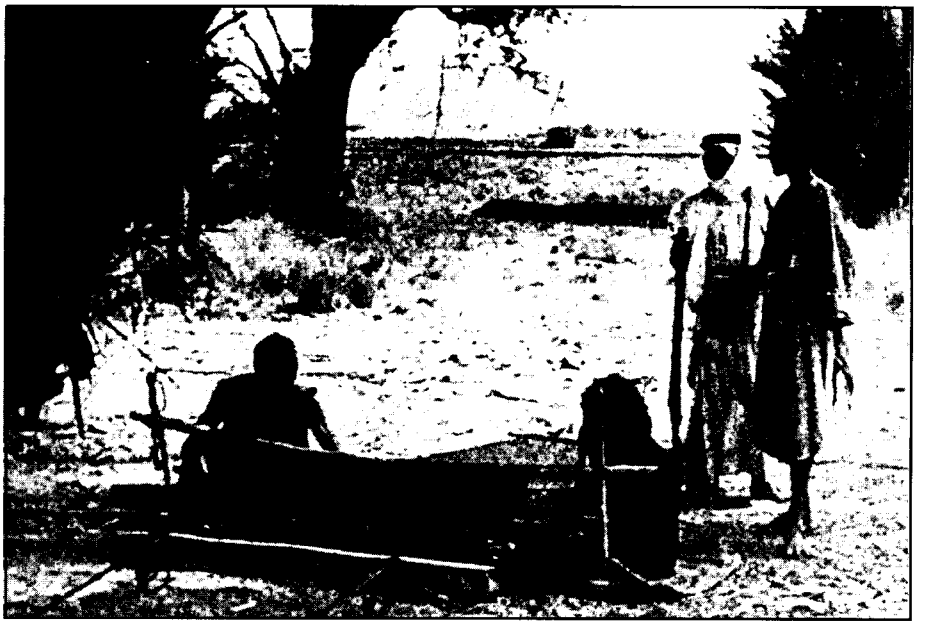

نجران : رجل وبنت ينسجان السجاد في دَحَضة

نجران : أطلال حصن الأخدود وقصرها

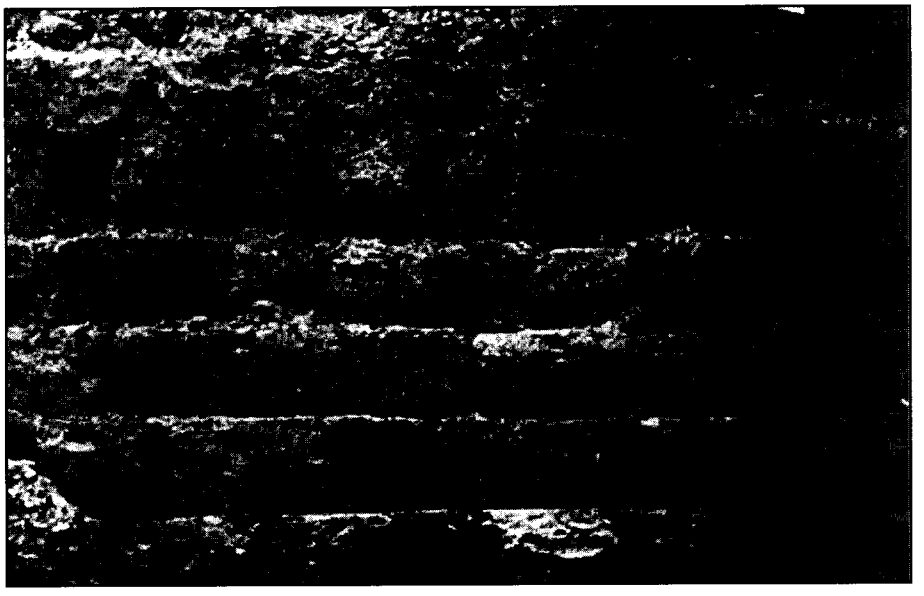

نجران : طابية الأخدود وقصر ثاني

رأس أسد من نجران

بركة صخرية كبيرة في شعب برّان

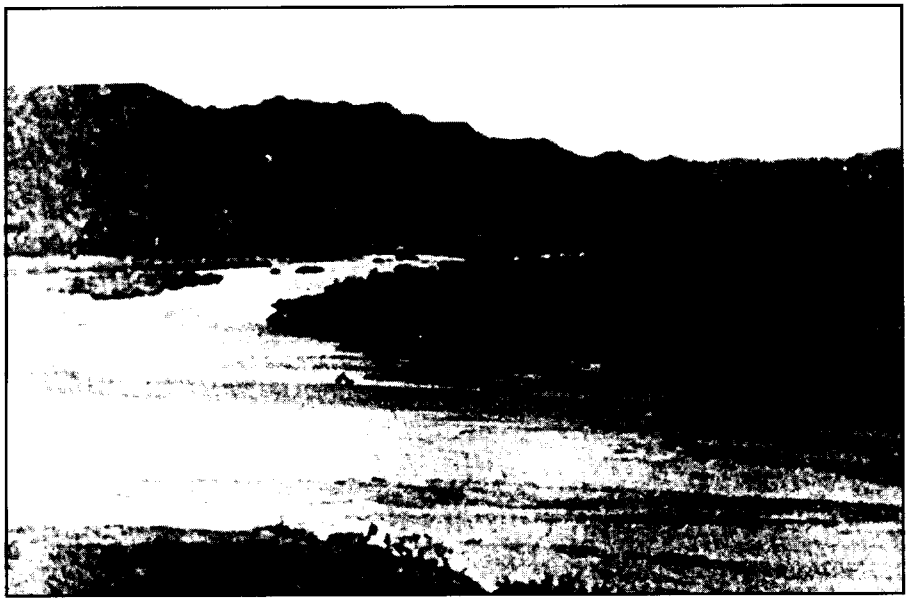

نجران : مسيل غيل في الجزء الأعلى من الوادي

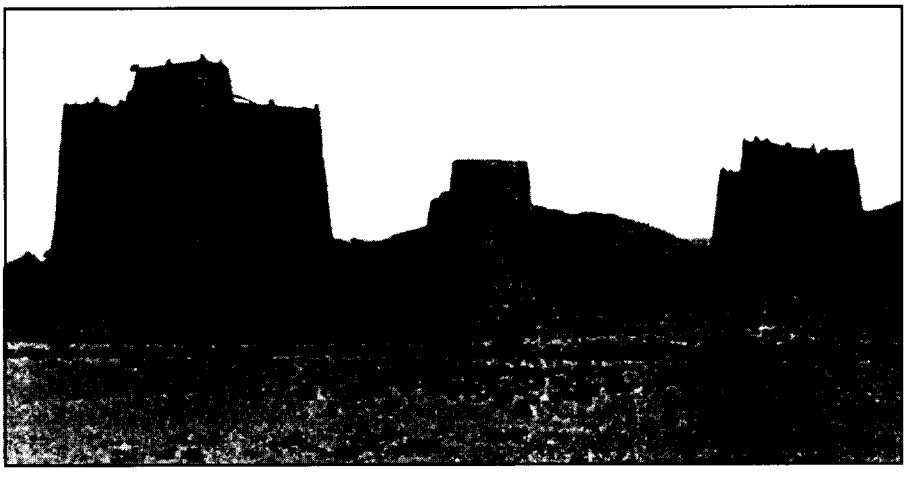

نجران : مقر سكن المكارمة في خشيوة

بئر البقعة في وادي حبونا

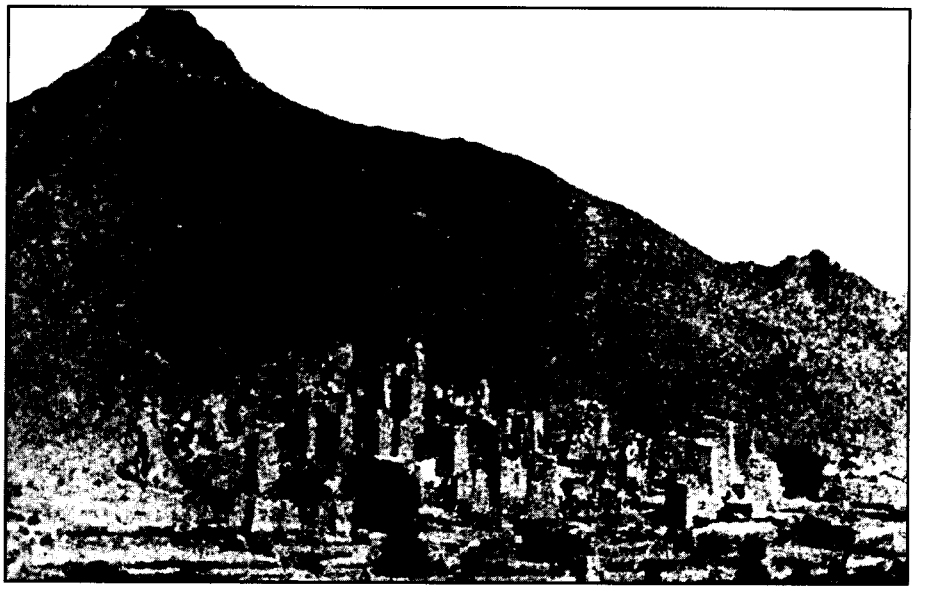

قرية قبضة (قبظة) جنوبي ظهران

شجرة إخور منفردة على منحدر الأتم

طريق الفيل يقود إلى وادي تلاح